الحلقة الثانية والعشرون

نتائج فتح مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : أيتها الأخوات المؤمنات :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: ففي الحلقة الماضية عرفنا تقدير الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى سفيان بعد إسلامه ، والدليل على ذلك أن الرسول جعل بيته محلا للأمن ، فمن لجأ إليه واحتمى به من الكفار فهو آمن " ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن " ولنرجع إلى ما قام به الرسول من ترتيب لنظام الجيش الإسلامي المتوجه إلى فتح مكة ، والنصائح التي زود بها هذا الجيش ، أما بالنسبة للترتيب العسكري ، فهو عليه السلام قسم الجيش إلى أربع فرق ، وأعطى توجيهاته إليها، وهى تتمثل في عدم إراقة دم أحد من الكفار إلا إذا اقتضت الضرورة ، وحتمت الظروف هذا التصرف، إنه عندئذ وفى ظل هذه الظروف وتلك الضرورة ، يكون السلاح هو الذي يحسم الموقف . إنها نصائح نبوية تدل على ما تحلى به الرسول من فضائل . وما أكرمه الله به من تصرفات إنسانية . ولنرجع إلى ترتيب الجيش طبقا لتعليمات الرسول ، إنه كما سبق قسم الجيش إلى أربع فرق ، وجعل الزبير بن العوام على رأس فرقة من هذه الفرق ، وعهد إليه بالدخول إلى مكة من الجهة الشمالية منها ، كما جعل خالد بن الوليد على راس فرقة أخري ، وأمره بالدخول إلى مكة من أسفلها ، وسعد بن عبادة على أهل المدينة وأن يكون الدخول لمكة من الجانب الغربي من ناحية كداء ، أما أبو عبيده بن الجراح فكان على رأس قوة من المهاجرين ، وهكذا نظم رسول الله الجيش الإسلامي الزاحف إلى مكة على هذا النحو ، مع تزويد الجميع بالتوجيه النبوي، وتأهب

الجميع للتقدم ، وهنا صاح سعد بن عبادة وقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، وعلم الرسول بما قاله سعد ، فلم يعجبه هذا القول ، ولهذا طلب من على بن أبى طالب أن يدرك سعدا ويأخذ الراية منه، تعبيراً منه - عليه السلام - عن عدم رضاه على ما قال ، ودخلت جيوش المسلين مكة ، ولم تجد كتائب الإسلام مقاومة من جانب أهل الشرك ، لكنّ خالد بن الوليد لقن أولئك الذين تعرضوا له درسا قاسيا أفقدهم الوعي ، وأعمل فيهم السيف الإسلامي البتار ، فسقط الكثير صرعى في ميدان المعركة ، وسقطت بعد ذلك قلعة الشرك في أيدي المسلمين ، فكان سقوطها فتحا عظيما ونصرا كبيرا ، وقد دوى صوت الإسلام في مكة ، وانطلقت الألسنة هاتفة بلا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واهتزت مشاعر المسلمين عند ذلك ، ابتهاجا بهذا الفتح وسرورا بذلك الانتصار ، ووقف الرسول بأعلى مكة وسجد شكرا لله ، وأثنى على خالقه بما هو أهله ، وقصد الكعبة ليطوف بها ، وقام على بابها وقال :

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ثم تلا هذه الآية الكريمة : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات : ١٣).

وهكذا جاء النصر والخير من السماء ، وفتحت مكة دون عناء ، وعاد إليها أبناؤها بعد طول غياب ، ومن كان يصدق أنهم سيعودون إليها ؟ وهم أولئك الذين أخرجوا من ديارهم ، وصودرت أموالهم ، وذاقوا مر العذاب من الكفار ، إن عودتهم كانت في منطق الكفار مستحيلة ، وإن المسلمين لن يستطيعوا العودة إليها أبداً ، لكن رب العزة وهو القادر على كل شىء قد قلب بقدرته أفكار الكفار رأساً على عقب ، ومكن لهؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أن يعودوا إلى وطنهم حاملين رايات النصر والقوة ، وفى ظل العزة والكرامة والسعادة .

وهكذا انتصر الحق وانهزم الباطل ، وأخرست ألسنة الشرك ، ونكست راية الضلال ، وباء

الكفار بالخيبة والانهزام ، وقد أمر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بلالا - رضى الله عنه - أن يقف على الكعبة ويؤذن ، واستجاب بلال لأمر الرسول ، وانطلق صوته الجميل يتردد في أرجاء مكة " الله اكبر ، الله اكبر " وارتفع صوت الإسلام عاليا مدويا ، معلنا ألا عبادة إلا لله ، ولا إله إلا الله، ولا عز إلا لله ، ولا نصر إلا من عند الله ، وقام - عليه السلام - بتطهير الكعبة من التماثيل ، وتنظيفها من الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، وأخذ يطعن هذه الأحجار بقوسه ، وهو يردد قول الحق - تبارك وتعالى - :﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ﴾ (الإسراء : ٨١).

وبعد أن تم فتح مكة ، وطهرت الكعبة من الأوثان التي كانت فيها وفوقها ، واستقرت الأمور للمسلمين بها، انتظر الكفار مصيرهم ، وكلمة الحق والعدالة فيهم، واعتقدوا تمام الاعتقاد أنه لابد من عقابهم بقسوة ، وأن محاكمة سريعة منهية حياتهم تنتظرهم ، وأن مستقبلهم مظلم ومهدد بالأخطار ، لا نهم طالما حاربوا الإسلام والمسلمين ، وامتدت أيديهم بالأذى والقتل إلى من قالوا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولأنهم كثيرا ما لجئوا إلى شتى الأساليب الحقيرة ومختلف الألوان لوأد دعوة الإسلام والتآمر على قتل حامل لوائها ، ولأن تاريخهم حافل بالعنف، والشدة، والغلظة، فمن حصار اقتصادي مرير ، إلى تعذيب وحشي دون رحمة ، إلى تآمر خسيس على قتل الرسول ، إلى غير ذلك من الأساليب الدنيئة الحقيرة التي كانوا يمارسونها ، أنهم - والحال هذه - يعتقدون أن العقاب الشديد سينزل بهم لا محالة ، وأن القصاص العادل سينهى حياتهم بلا رحمة ، وبينما هم في هذا الجو الكئيب ، إذ بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يقول لهم ما ليس في حسبانهم : ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟

- فيقولون له في ذلة ، مستدرين عطفه وصفحه وتخفيف الحكم عليهم ، راجين أن يكون حكما أخف مما تختزنه أذهانهم ، قالوا لرسول الله :

- أخ كريم وابن أخ كريم . وهنا قال لهم - عليه السلام - هذه العبارة المحمدية التي سطرها الزمان بأحرف من نور : اذهبوا فانتم الطلقاء.

إنهم حينما سمعوا ما قاله الرسول لهم ، بدأ البشر فوق وجوههم ، وتهللت أساريرهم ، وامتلأت قلوبهم غبطة ، ونفوسهم مسرات ، لأنهم لم يكونوا يتوقعون العفو من جانب الرسول عنهم ، وهم أولئك الذين سوّدوا حياتهم بأعمالهم الشريرة ، وصدرت منهم أفعال شيطانية خسيسة ، ومع هذا كان هذا الموقف المحمدي المشرّف ، الذي يمثل العفو في أسمي معانيه ، والصفح الجميل في أنضر مجاليه ، لقد تمثل في دخولهم في دين الله أفواجا ، وتسابقهم في الانضواء تحت لوائه . هذا هو فتح مكة ، وتلك هي النتائج الطيبة التي ترتبت على هذا الفتح ، وما النصر إلا من عند الله ، والله الموفق .